مقاربة العنوان: البنية والدلالة
رواية "النَّص النَّاقص" لعائشة الأصفر أنموذجًا

نعيمة محمد الفلاّح(*)
كلية الآداب – الجامعة الأسمرية – زليتن

ملخص:

حظيت دراسة العتبات باهتمام الدارسين قديماً وحديثاً؛ لما لها من أهمية بالغة في مساعدة المتلقي للولوج إلى عالم النص وفك شفراته، والعنوان هو أحد أهم ما يحيط بالنص ويسيجه، حيث يلقي بحمولاته الدلالية على النص، فيسميه، ويختزله. لذلك عمد هذا البحث إلى مقاربة العنوان في رواية النص الناقص لعائشة الأصفر، في محاولة لاقتناص المدلول الاستشرافي للعنوان عبر البنية التركيبية له في مستوياتها المعجمية والنحوية والصوتية، ومن ثم اشتغال العنوان في النص وتعالقه بالمضمون لفظياً ودلالياً. تعتمد الدراسة في تحليلها على المنهج السيميولوجي، حيث توصلت إلى أن العنوان **(النص الناقص)** كان أيقونة النص وثيمته الأساسية التي بني عليها، وذلك من خلال كل الإشارات والدلالات الرامزة إلى العنوان، بدءاً من البنية التركيبية، وانتهاءً إلى المعاني الدلالية في تشكيل الشخصيات والمقاطع السردية، كل ذلك داخل ضمن علاقة تكاملية بين النص وعنوانه.

الكلمات المفتاحية: المتعاليات النصية – عتبة – المناص – العنوان – عائشة الأصفر – النص الناقص.

مقدّمـــة:

لم يعد النص وحده يحظى بالاهتمام البالغ لدى النقاد، بل كل ما هو ذو وشائج رابطة وداعمة للنص ومنفتحة عليه، من شأنه أن يكون بؤرة اهتمام لدى الناقد الذي يسعى لإيجاد أي

(*) للتواصل مع الباحث: n.alfalah@asmarya.edu.ly

إشارة دالة، أو مفتاح يفتح به مغاليق النص، أو عتبة يلج من خلالها لعالم أوسع مليء بأبواب أخرى تحتاج بدورها إلى مفاتيح أخر.

على أن تلك الإشارات خارجية كانت أم داخلية تلقي بحمولاتها الدلالية على النص، كما أن النص بدوره يحيل إليها كمًّا من الشيفرات والرموز، وعلى الناقد أن يفك تلك الشيفرات ويستوضح تلك الرموز ليصل أخيراً إلى النص.

لذا جاء الاهتمام بدراسة العتبات أو النصوص الموازية ومن بينها **العنوان** أمرا ملحاً لاستكناه ما غمض من النص وما خفي منه، لما له –أي العنوان– من أهمية كبرى في تلخيص النص وتكثيفه أيضاً.

من هنا كان الاختيار للعنوان هدفاً للدراسة والتحليل، استناداً إلى السيمولوجيا باعتباره منهجاً متبعاً لمقاربة هذه الدراسة.

وكانت الرواية المسرح الملائم لدراسة العنوان من خلالها، حيث البوح بالممكن واللاممكن، والانفتاح على العالم بجميع مستوياته، وتحرير الفكر من قيود المنطق، ومن ثم اختزال كل هذا الزخم المعرفي والخيالي في جملة مقتضبة، توقع القارئ في شرك الغموض والدهشة وكسر أفق التوقع أحياناً.

فكان (النص الناقص) وكانت (عائشة الأصفر)، الأول: عنوان للرواية مناط الدراسة، والثاني: اسم الكاتبة الروائية الليبية، صاحبة أربع روايات متميزة، (اللي قتل الكلب 2007م، خريجات قاريونس2007م، اغتصاب محظية 2012م)، حيث تعد النص الناقص آخر ما كتبته إلى الآن.

فالرواية لوحة فسيفسائية من الموروث والعجائبي والمتخيل والواقع بكل مستوياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وبكل قضاياه الإشكالية، وقد رسمت اللوحة على خلفية فزانية تتقاطع مع الجنوب الإفريقي، في محاولة لرصد معاناة (الأنا السمراء) تحت وطأة نتاج عقلي ناقص.

واستناداً إلى العلاقة الجدلية بين العنوان والنص، ستحاول الدراسة الإجابة عن بعض الأسئلة، من بينها: لماذا النص الناقص؟، وما دلالة النقص في النص؟، وما العلاقة بين النص والعنوان؟

وللولوج إلى مقاربة الدراسة سيتم تقديم تنظيري لمقاربة المفهوم (مفهوم العنوان) بداية من المتعاليات النصية ووصولاً إلى العنونة، ومن ثم التعريج على وظائف العنوان، وأخيراً الوقوف عند طبيعة العلاقة بين العنوان والنص، وتأسيساً على ما سبق سيتم دراسة العنوان في الرواية من خلال مستويين: التركيبي من حيث البعد المعجمي والنحوي والصوتي للعنوان، والدلالي من حيث الحضور الدلالي واللفظي للعنوان في النص، وكذلك حوار العنوان والنص من خلال الشخصيات والمقاطع السردية.

1. عتبة نظرية:

1.1. من المتعاليات النصية إلى العنوان:

إن كل ما يحيط بالنص من شأنه أن يكون ذا قيمة إحالية ومرجعية وعلاماتية، تشي بالكثير حول النص، إن كان تفسيراً أو تحليلاً أو تركيباً أو تفكيكاً.

إذ لا بد لكل نص أن يدخل في علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع نصوص أخرى، وهو ما يسمى بالتعالي النصي عند جيرار جنيت Gerard Genette[1]، وثمت خمسة أنماط من التعاليات النصية التي حددها ج. جنيتGerard Genette، وقام بشرحها سعيد يقطين وهي: التناص، والمناص أو النص الموازي، والميتانص، والنص اللاحق، ومعمارية النص. غير أن سعيد يقطين يؤثر مصطلح التفاعل النصي بدلا عن التعاليات النصية؛ لما للأخير من دلالات إيحائية بعيدة، حيث فسر تلك الدلالات في كتابه انفتاح النص الروائي لا يسع المقام هنا لذكرها[2].

1- ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2001، ص96-97.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص98.

* ثمت عدة ترجمات لمصطلح المناص منها: النص الموازي، التوازي النصي، موازي النص... ينظر: عبدالحق بلعابد، عتبات (ج. جنيت من النص إلى المناص)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص43.

وما يهمنا من تلك التعاليات النصية هو النص الموازي (المناص)*؛ لكونه حاضنا للعنونة، حيث يعد المناص من أشهر المفاهيم ذيوعاً، إذ خصصت له مجلة بوطيقا عدداً خاصاً، وكتب عنه ج. جنيتGerard Genette كتاباً ترجم باسم العتبات[3].

ولكن ما هو المناص (النص الموازي)؟

المناص عند ج. جنيت Gerard Genette وكما يشرحه عبد الحق بالعابد في كتابه عتبات جيرار جنيت، هو: "نمط من أنماط المتعاليات النصية، والشعرية عامة، يتشكل من رابطة هي عموما أقل ظهوراً وأكثر بعداً من المجموع الذي يشكله عمل أدبي"[4]، وإن كان على حد تعبير بورخيس هو " العتبة... البهو الذي يسمح لكل منا دخوله أو الرجوع منه"[5].

كما جعل ج. جنيت Gerard Genette المناص نوعين: المناص الـتأليفي، والمناص النشري، ثم قسمه على قسمين: النص المحيط، والنص الفوقي، حيث عنى بالنص المحيط: تلك المصاحبات التي تحيط بالنص من اسم الكاتب، والعنوان، والعنوان الفرعي، والإهداء، والاستهلال...[6].

2.1. مفهوم العنوان:

إن للعنوان مفهوماً دقيقاً وشاملاً وذلك حسب تعريف لوي هويك Loe Hoek في كتابه سمة العنوان، فهو عنده: "مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات وجمل، وحتى نصوص، قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وعينه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف"[7].

3- ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص97.

4- ينظر: عتبات ج. جنيت، عبد الحق بلعابد، ص43-44.

5- المرجع نفسه، ص44.

6- المرجع نفسه، ص44-46.

7- المرجع نفسه، ص67.

وإذا أمعنا النظر في التعريف السابق، نجده قد حدد مكونات مهمة للعنوان:

فالعنوان: علامة لسانية

كلمات وجمل ← يشير إلى البنية التركيبية للعنوان.

تظهر على رأس النص ← سؤال المكانية.

أما آخر ما ذكر في التعريف يوجهنا إلى سؤال الوظيفة، فما وظيفة العنوان بحسب ما جاء في تعريف هويك Hoek؟

تقوم تلك العلامات حسب هويك بثلاث وظائف: الأولى أيقونية تتمثل بالتحديد، والثانية دلالية، والثالثة اتصالية تتمثل بإغراء مجتمع القراءة.

3.1. جدلية العنوان والنص:

العنوان يربطه بالنص علاقة جدلية، قد تكون إحالية حيث يحيل العنوان إلى النص والنص إلى العنوان، أو علاقة كلية وجزئية، أو حتى علاقة انعكاسية.

ولكن بأيهما تكون البداية خلقاً وتحليلاً؟!

قد يبدأ الكاتب في صياغة عنوان لنصه قبل أن يخلق النص، أو يحدث العكس، حيث بعد الاكتمال من تأثيث النص ونسجه، يشرع في تكثيفه واختزاله في عنوان يسم نصه ويسميه ويرمز إليه، ويشي بالكثير أو القليل عنه. فالعنوان إما أن يكون باباً مواربا للنص، أو باباً مفتوحاً على مصراعيه، يلج منه القارئ بغية "تتبع دلالاته، ومحاولة فك شفراته الرامزة"[8].

وبحسب علاقة العنوان بالنص ومدى ارتباط بعضهما ببعض، يرى محمد مفتاح أن لدراسة العنوان لابد من أحد مسلكين أو طريقين، أحدهما: يسميه القمعدة، أي ابتداء من القمة/العنوان، وانتهاء إلى القاعدة/النص، أو العكس وهو الطريق الآخر، ويسميه القاعمة، وإن كان يغلب الطريقة الأخيرة لنجاحها في الكشف عن شفرات العنوان[9].

8- محمد فكري الجزار، العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، 1998م، ص15.

9- ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص: تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، ط2، 1990م، ص72.

إذاً لابد من العنوان، كما أنه لابد من النص، بل إن العنوان هو النص، والنص هو العنوان ولكن بملامح أخرى وبلغة أخرى أيضاً.

كذلك إذا أشركنا في طرفي هذه المعادلة القارئ والناص –باعتبارهما وجود حتمي في هذه المعادلة– "فالعنوان يعد أخطر حدث ينجزه الناص من خلال فعل العنونة، لكونه العتبة الأولى التي تشهد المفاوضات بين القارئ والنص: النص بالمجهولية التي يشهرها والقارئ بالرغبة في تطويعه وتطبيعه وترويضه، وعند حافة هذه العتبة سيحدث أن يهم القارئ بالنص والنص بالقارئ، أو أن ينصرف القارئ وقد قُد قميصه من دبر"[10].

وهذه إطلالة وجيزة على نظرية العنوان، نلج من خلالها إلى عتبة الرواية حيث النص الناقص وما يمكن أن يقدمه من إجابة على تساؤلات عدة تدور في ذهن القارئ.

2. العنوان بين النصية/والنص (الرواية):

النص الناقص عنوان مليء بالترميز والغموض، لا يمكن فك شفراته إلا بالوقوف على المستوى اللغوي والدلالي الاستشرافي باعتبار العنوان مكوناً نصيًّا أيضا، واستناداً إلى النص (الرواية)، حيث المغيث والملاذ الذي يلجأ إليه القارئ لعله يجد ما يفتش عنه في رحلته القرائية للنص والعنوان كليهما معا، لذا وبناء على المقاربة السيمولوجية للعنوان سيتم تناول بنية العنوان ودلالته من خلال بوابة التركيب ومستوياته اللغوية حيث المعجم والنحو والصوت، في محاولة لاقتناص المدلول الاستشرافي للعنوان، ومن ثم الولوج إلى عتبة الدلالة، حيث العنوان واشتغاله في بنية النص.

1.2. بنية العنوان:

لمقاربة بنية العنوان سنتوقف عند ثلاثة مستويات في الخطاب النصي للعنوان وهي: المعجمي، النحوي، الصوتي.

1.1.2. المستوى المعجمي: تأتي كلمة النص في المعجم بمعنى الظهور وإدراك الغاية إلى منتهاها، فما ورد في لسان العرب لابن منظور أن " النَّص: رفعك الشيء... وكل ما

10– خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤوون العتبة النصية)، دار التكوين، دمشق، د. ط، 2007م، ص87.

أظهر، فقد نصَّ. ووضع على المنَصَّة: أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور. وأصل النَّص أقصى الشيء وغايته. ونَصُّ كل شيء: منتهاه، وكذلك النَّص في السير إنما هو أقصى ما تقدر عليه الدابة، قال (للأزهري): فنَصُّ الحقَاقِ إنما هو الإدراك، وقال المبرد: نَصُّ الحقَاقِ منتهى بلوغ العقل، أي إذا بلغت من سنها المبلغ الذي يصلح أن تحاقق وتخاصم عن نفسها"[11].

أما كلمة النَّقص: فهي "الخسران في الحظ، والنقصان... يكون قدر الشيء الذاهب من المنقوص. والنَّقص: ضَعفُ العقل"[12].

من خلال التعريف المعجمي للعنوان، تبين لنا أن ثمت مفارقة بين مدلول الكلمتين معجمياً، وهو التقابل في المعنى بين إدراك الغاية ومنتهاها وبين الضعف والخسران. كيف لنص أن يدرك الغاية وقد وصف بالنقص؟!!. أم أن النقص لازمة لأي اكتمال؟!.

2.1.2. المستوى النحوي: العنوان لغة دالة، لا تعتمد في تركيبها على قاعدة معينة، "وغير مشروطة تركيبياً بشرط مسبق، وبالتالي فإن إمكانات التركيب التي تقدمها اللغة كافة قابلة لتشكيل العنوان، دون أية محظورات، فيكون كلمةً، ومركباً وصفياً، ومركباً إضافياً، كما يكون جملةً فعليةً أو اسمية"[13].

و(النص الناقص) ذو بنية اسمية، محذوفة المبتدأ تقديره: هذا النص الناقص، متكون من المكون الاسمي (هذا النص)، والمكون الوصفي (الناقص)، في صيغة مفردة مُعَرَّفَة.

وللاسمية القدح المعلى في بنية العنوان "حتى تكاد تكون الخاصية الأساس في العنونة"[14]، حيث التقرير والثبات "قصد تأكيد مضمون النص وتحقيقه نصيا"[15]. ومن ثم

11- ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 2003م، ج7، ص109-110.

12- المرجع نفسه، ص112.

13- محمد فكري الجزار، العنوان وسيموطيقا الاتصال، ص39.

14- محمد عويس، العنوان في الادب العربي: النشأة والتطور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1988م، ص 35.

الــتأكيد عل ثبات النقص للنص في كل أحواله. وكأن النقص سمة ثابتة لا يمكن تجاوزها لأي نص.

ومن الاسمية والثبات إلى الحذف النحوي، "حيث الفجوات النحوية هي شكل لغوي موازٍ لفجوات نفسية صادمة للمتلقي، مما يطرح مسألة الغموض الدلالي للعنوان، كما تطرح عناوين المحكيات الحداثية"[16]، فالحذف يؤدي إلى الغموض، حيث يشير الحذف إلى التركيب كما يشير الغموض إلى الدلالة، والعنوان نص فتح الباب واسعا على مصراعيه، أمام قراءة متعددة الدلالات، وإن كان العنوان قد بخل بإشارات تحسم دلالته، وهذه ميزة العنوان الناجح "إذ عليه أن يخبر وأن يبقى محدود الإخبار في الوقت نفسه"[17]. فإن ما يمكن أن ينبئ به النص (الإدراك والغاية المنتهاة) يخرج عن معناه المعجمي إلى معان أخر محتملة الدلالة وليس قطعيتها، "لا يمكن للنص أن يكون هو القولي الملفوظ أو المكتوب فقط، فكل حادثة أو صورة أو شكل أو كائن أو شيء يعد نصا، إذا كان يمثل معنى مغايرا مختلفا عن السائد، قابلا للتأويل والقراءة والمتعددة والمختلفة"[18].

3.1.2. المستوى الصوتي: ثمت توازٍ في الإيقاع الصوتي بين الكلمتين النص والناقص، وذلك بتكرار الحروف (النون والصاد) مع الحركة والتشديد، مما يثير شعرية واضحة، بما فيه من جناس وسجع واضحين.

النون المشددة في كليهما توحي بالثقل، واحتباس النَّفَس إلى الأعماق ثم انطلاقه عبر الصفير الصادي في الكلمة الأولى، وانطلاقه عبر المد المطول ليحتجز مجدداً إلى أقصى

15- جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، ط 1، 2015م، ص660.

16- شعيب حليفي، النص الموازي للرواية: استراتيجية العنوان، مجلة الكرمل، قبرص، ع46، 1992م، ص92.

17- رشيد يحياوي، الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1998م، ص113.

18- محمد مسعد، سحر شعرية النص ومناهج قراءته، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2019م، ص14.

الأعماق حيث القاف، وأخيراً عبر الصفير الصادي، كل ذلك به ثقل الحروف واستكانتها في قرارة النفس ومن ثم انطلاقها واحتباسها مجدداً، هذا التكرار المراوح بين الهبوط والصعود في خلجات النفس، الانطلاق من الأعماق والرجوع إليه دون انفراجةٍ عن آهة طويلة، قد يمثل النقص بثقله في محاولة لإدراك المنتهى.

2.2. حوار العنوان والنص: يدخل النص مع العنوان في علاقة حوارية، حيث يفضي العنوان للنص ويفضي النص للعنوان.

1.2.2. الحضور اللفظي للعنوان في النص: إذا تتبعنا لفظة النص الناقص أو مرادفاتها في الرواية، سنجد أنها قد تكررت بشكل ظاهر وربما متعمد من الكاتبة؛ للتأكيد على ما وراء هذا العنوان من دلالات ومعان، ربما تود من القارئ الوقوف عندها مراراً وتكراراً.

نجد أن العنوان قد انبثق من النص نفسه، وتجسد بكينونته اللفظية أو مرادفاته وبشكل متواتر، ففي بداية الرواية وعند الصفحة 14، نجدنا أمام مشهد حواري بين مريم وعامر، في لقائهما الأول في مدرسة عائشة أم المؤمنين بسبها، يسألها عامر عن دراستها، فتجيبه بأنها تعد بحثاً اجتماعياً عنوانه "ظاهرة النص الذي لم يكتمل"، ومن هنا يشير العنوان (البحث/ الرواية) إلى ما يمس المجتمع من قضايا، حيث تحاول مريم من خلال بحثها التأكيد على ظاهرة اجتماعية تحاول طرحها ودراستها. وهو هنا أحد مفاتيح تفسير العنوان (الرواية).

يتجلى العنوان أيضا في الصفحة 49 ضمن سرد مليء بالترميز والتناص، منسوج من لغة شعرية فريده:

"وأسرح أنا حيث ولدت.. في مستنقع دم أسير..
تتزحلق قدماي في الألسنة المخاطية..

يتسربل ثوبي في النهر الأحمر، وسط المذبح العملاق أتخبط.. أبحث عن تمام النص الناقص.. النص الذي لم يكتمل بعد.. تهت في نص قدم أكثر من تسعين ألف قربان لقميص أشعل أكبر فتنة في تاريخه.. كل قرابينه بحد السيف فرادى.. حيث لا كيماوي ينهي بالجملة، ولا ذري يحرق في لحظة.. فما أبشع اللقطة.. وأين منه قميص يرد بصيرتنا.

تائهة بين الجمل، والتحكيم، وصفين، وفرق التكفير.. أهرول بين أهل بيتهم، وأهل بيتي.. وهم يتمرغون التراب يستلذون الطعن.. مات مسموما.. مات مغدورا.. مات مصلوبا.. وأنا

لا أجيد سوى الرثاء.. خنساء الأمس.. هي جليلة اليوم.. والقادم.. وما أنتم إلا قرابين نصكم الذي سيظل ناقصا، وأنتم تتناقصون ذبحا وغباء ونزوحا.. لن يملأه إلا الدم والدموع والجذب.. ها هو في كفن أسود ممدد أمامي.. قربوا طبول الندب مني.. طبول الموتى دقوا.. وهيلوا على رأسي التراب.. وعددوا معي بكائية الجليلة..

إنني قاتلة مقتولة..... ولعل الله قد يرتاح لي

هدم البيت الذي استحدثته... وانثنى في هدم بيتي الأول"[19].

هنا ورد العنوان ضمن سرد متناص، يشير إلى حيث المفارقة بين الأمس واليوم في تقديم القرابين والمذابح البشرية، في إشارة إلى نزعة السيادة المقيتة، نزعة الإنسان منذ الأزل إلى الدم والانتقام، نشأة الصراع منذ التاريخ، صراع الإنسان مع ذاته لإثبات ذاته، أزمة عقل بشري لازمه النقص!.

وفي إحالة واضحة ومباشرة إلى تفسير عنوان مشروع مريم، حيث ذكرت مريم فكرة مشروعها وعددت كثيراً من ملامح النقص التي لاحظتها، نورد في هذا الجدول أهم المرتكزات الأساسية المعتمدة في ذلك:

النصوص الكتابية والفنية:	لم أجد رسما كاملا في رسومات الأطفال. نصوص التعبير غير مكتملة. مقال في جريدة.. نص في كتاب.. القصة أو الرواية لا تكتمل..
المشهد السياسي:	مؤتمراتنا الدولية لا تتوصل إلى نتيجة رغم الصياغة المبذولة. عدم الاتفاق والتوحد. في كل مقابلة تلفزيونية أحس بأن شيئا لم أفهمه رغم اللغط والانفعال والتفصيل الممل. دولة لم تتحقق.. في حالة مخاض مستمر على مر التاريخ.

19- عائشة الأصفر، النص الناقص، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس- ليبيا، ط 1، 2017م، ص49.

المشهد الاجتماعي:	داخل بيوتنا هوة. كل شيء في حياتنا مشروع لم يكتمل. مجتمع لم يكتمل بناؤه.

كل ذلك يرمي إلى النقص / العجز / الارتباك والتوتر، وهذا ما جاء أيضا على لسان مريم وهي تشرح لعامر –في إحدى رسائلها إليه– سبب النقص في كل النصوص:

"**أتعلم إلام توصلت عامر؟ أننا عقل لم يكتمل بعد، أنه لدينا أزمة عقل وراء ظاهرة الارتباك هذه، أزمة مردها طريقة التفكير الفاقد للمنهجية، لطرق مناهج البحث العلمي، نتخبط في الارتجالية عند كل مشروع، وكأن فضاء تضاريسنا مليء بالأعمدة الخرسانية المتفرقة غير ذات صلة، أكمله أنت يا عامر، وانتبه لما قيل في نقد العقل لمجتمعاتنا، ستقودك إلى ظاهرة (عدم اكتمال النص) أو النص الناقص، القيم لا تتجزأ وهو مبعث قلقي**"[20].

إذاً ورود العنوان بلفظه في النص يشير إشارة واضحة، وبتفسير واضح من الشخصية (مريم) إلى أزمة العقل البشري الذي لا يمكن إلا أن يكون ناقصاً في كل الأحوال، لذا تكرر الـــتأكيد على النقص، وكأنه لابد من النقص حتى الاكتمال، ولم تكن تلك النصوص إلا نتاج ذلك العقل الناقص.

2.2.2. الحضور الدلالي للعنوان في النص من خلال:

– **الشخصيات:** تمثل الشخصيات في الرواية الثيمة المحملة بقيمة معينة، مجسدة في رسم خاص للشخصية عبر الخلفية الفكرية والثقافية والاجتماعية لها، ومن خلال تلك السمات سنقف عند أهم الشخصيات الأساسية في الرواية، لنتلمس من خلالها دلالة العنوان، الفكرة هنا تكمن في طرح سؤال مهم، وهو: كيف تحملت تلك الشخصيات بحمولات العنوان؟ وكيف جسدته؟ وهل يمكن ذلك أم لا؟ وهو السؤال الأهم.

20– عائشة الأصفر، النص الناقص، ص99.

الشخصيتان الرئيستان بالرواية هما مريم وهيما (إبراهيم)، لكن عامر هو شخص رئيس أيضا، والراوي للأحداث، كما أنه الرابط بين العديد من شخصيات الرواية مثل فاطمة وسمر ومفتاح، إلى جانب مريم وإبراهيم.

لذا سيتم التوقف عند أهم الشخصيات في الرواية، وهي: عامر، ومريم، وإبراهيم / هيما.

عامر: موظف بالسجل المدني، له عديد الاهتمامات الثقافية والفنية، فهو رسام، ويرتاد البيت الثقافي سبها، هذا على الصعيد الثقافي للشخصية، أما على المستوى الاجتماعي فهو رب لأسرة: زوجته فاطمة وبناته، تربطه بفاطمة علاقة نمطية جدا، حيث أجبر على الزواج منها تلبية لرغبة أمه، بعد أن كانت تربطه علاقة عاطفية بمريم دامت ثلاث سنوات، لم يستطع من خلالها الارتباط بها بسبب الفروق العرقية والاجتماعية، إلاّ أنهما حافظا على التواصل حتى بعد الزواج.

شخصية عامر في الرواية هي انعكاس للشخصية الذكورية المليئة بالتوتر والإرباك والتناقض من خلال موقفه العاطفي مع حبيبته مريم، وزوجته فاطمة، وصديقته سمر، حيث يعيش الرتابة والتهميش مع فاطمة، وحبه المفقود مع مريم، ومشاعر التعويض عن الحرمان ومرارة الفقد مع سمر، فسمر هي المتنفس عن كل ذلك.

من خلال رسائل مريم إلى عامر وهي في مستشفى الأمراض العقلية، لم تذكر زيارته لها سوى مرتين فقط بشكل واقعي، أما عن طريق المتخيل فقد زارها مرتين أيضا، حيث نلمس من خلال رسائلها عتابا صريحا لغيابه وفقدها له وهي في أشد حاجتها لرؤيته. ص199.

في ذلك الوقت كان عامر يلتقي سمر في البيت الثقافي سبها، ويكملان ما تبقى من حديث عبر الرسائل النصية، كان يعجب بحيويتها ويرى فيها كبسولا مسكنا لأوجاعه. ص85-87.

عامر لم يحظ بمريم ولم يستطع أن يتعايش مع فاطمة ولم يهنأ بسمر، ظل أسيراً للتردد والإرباك العاطفي تجاه كلهن، بل أصبح يشعر في كل مرة بالذنب تجاههن، الشعور بالإهمال تجاه فاطمة، والتقصير وسؤال الضمير تجاه مريم (هل أستحق حبها؟) وذلك عندما ينأى بقلبه عنها تجاه سمر. ص182.

وكأن الكاتبة أرادت جلد الشخصية الذكورية بجلاد هي الذات نفسها، فما اشتكى منه عامر من تقصير وظلم في حقهن أكثر مما اشتكين منه.

مريم: فتاة من سبها، معلمة في مدرسة عائشة أم المؤمنين، لها مشروع بحثي في علم الاجتماع عنوانه (ظاهرة النص الذي لم يكتمل)، التقت بعامر في نفس المدرسة عن طريق ابنة أخته نجمة حيث كان قادما لمتابعة أداء ابنة أخته، خلال ذلك تكونت بينهما علاقة عاطفية لثلاث سنوات، أجبرت بعدها على الزواج من شخص آخر، ظل قلبها معلقا بعامر ولم تستطع أن تمنح زوجها حباً ولا ولداً، عولجت بالكي والأعشاب الشعبية، واتهمت بالمس، ثم بالجنون، وأخيرا أودعت في مصحة للأمراض العقلية، حيث لم يكن ذلك المكان أرحم من الكي والألم الذي لاقته من أهلها، عانت الوحدة والشقاء والبؤس حتى ماتت.

يمكننا ملاحظة تكوين شخصية مريم في الرواية من خلال ثلاث زوايا:

الأولى: من زاوية المجتمع، فهي امرأة ناقصة اتهمت بالعقم والجنون، وعرقل مشروعها الاجتماعي أكثر من مرة، ولم يؤخذ رأيها في الزواج، حيث رتب لها كل شيء وهي لا تعلم. فلا يحق لها أن تقرر في مسألة مصيرية كهذه. ص21 ، 22 ، 58.

الثانية: من زاوية عامر، لم ينظر إلى مريم على أنها ناقصة أبدا، بل يراها تحمل مشروعا أكبر مما يمكن أن يستوعبه المجتمع، إلى جانب شعوره المتكرر تجاهها بالضعف والتقصير وتأنيب الضمير: "**فهل أستحق أنا العاجز حب هذه البطلة أستاذة الرسم والألوان أستاذة النص الناقص**"، "**ذات عقل حتى في أزمة العقل**"، "**لو كانوا يعلمون لصنعوا لك تمثالا فخريا، لا قيدا حديديا وفي مصحة عقلية**"[21].

وهذا ما يؤكده لصيق الزاوية وهو يهمس لمريم "**لستِ مجنونة.. إنك جنون العقل الفاعل.. وهم النص الناقص.. المرتبك ولذا هم في عجز عن الوصول**"[22].

الثالثة: من زاوية الشخصية نفسها(مريم)، تشعر بالتذمر والأسف تجاه نظرة الآخرين لها، وهي مؤمنة بمشروعها، حالمة وطموحة، إلا أن كل شيء حولها من ظلم وقسوة (العقل والفكر)، جعلها تتبنى فكرة أنها ناقصة: "**مرحى بالسادية التي تجعلك تستعبد القوة، فكيف ونحن تحت سادية التخلف واتهام العقل بالجنون... ويتكرر السؤال.. ماذا جنيت من كل**

21- عائشة الأصفر، النص الناقص، ص182 ، 281 ، 314.

22- المصدر نفسه، ص191.

هذا، ما المصير الذي ألت إليه؟ أظنني النص الذي لم يكتمل"[23]، ولا يمكنها إكمال مشروعها، لذا في إحدى رسائلها لعامر تطلب منه إكمال المشروع بالنيابة عنها.

إبراهيم (هيما): شخصية مركبة في الرواية، جسدت دورها بين (الواقع/إبراهيم)، و(المتخيل/هيما)، فإبراهيم شاب من النيجر، كغيره من الشباب الذي يطمح للهجرة إلى الشمال، فراراً من الفقر والجهل وصعوبة العيش، من الجنوب الأفريقي إلى الجنوب الليبي، حيث الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وتجرع الذل والهوان وبعض من رشفات الحياة، للعبور إلى الموت في النهاية، رصاصة الاختلاف العشوائي تستقر في الجسد، إلا أن الروح تهرع إلى سماء زلاف، لتتجسد في شخص أعرج، ينقل عامراً، متخطياً حاجز الزمان والمكان، عبر المتخيل واللامنطق واللاممكن حيث مريم تحت ظلال زلاف. ص72 ، 77 ، 187.

ما يجمع الشخصيات الثلاث وغيرها من شخصيات الرواية، عدم الاكتمال (النقص) على مستوى الذات والآخر. المشروع لم ينته ولم يكتمل، الأحلام لم تتحقق، الموت المحقق نهاية لمسار الشخصيتين مريم وإبراهيم.

فمريم تكثيف دلالي لأنثى المرأة والوطن، أما عامر الرجل الناقص بتشظيه وتوتره كما المشاريع العلمية والاجتماعية والسياسية، وكل نتاج عقلي ناقص، وحدها الأنثى لم تكن ناقصة، سواء مريم أم فزان، لأن من أشقى مريم هو ذاته من أشقى إبراهيم ومفتاح وفاطمة وسعاد.

– **المقاطع السردية:** تتشكل الرواية من حدثين رئيسين، الأول دخول مريم إلى مستشفى الأمراض العقلية، والثاني: هجرة إبراهيم من الجنوب الأفريقي إلى الجنوب الليبي.

الحدثان يمثلان مساراً واحداً للرواية، مع نهاية واحدة لكلا الشخصيتين (الموت/ الشقاء).

يتخلل الحدثين العديد من المقاطع السردية التي يمكن أن تشي دلالياً بالنقص الكامن في العنوان، حيث الحوار الواضح بينهما(العنوان/النص) وإن اختلفت اللغة، لذا من الضروري

23– المصدر نفسه، ص192.

الوقوف عند بعض تلك المقاطع؛ لنتلمس ما يمكن أن تحيل إليه من دلالات قد ترتبط بعنوان النص.

(وكالعادة تساءلت، وهل أملك غير السؤال؟ كيف ترخص عليهم دماؤهم التي اختلطت في شرايينهم؟، الأهل والنسب والجيران والصف هم، فكيف يستكثرون على الجريح المشفى، لا شك عمى القلوب هو، هذا الاكتظاظ، وهذه الحرب، من أجل النيل من جريح من الطرف الآخر يقبع تحت التخدير الكامل في حجرة العمليات)[24].

يشير المقطع السردي إلى الاشتباكات المسلحة الحاصلة في سبها، وبين أبنائها، حيث لا قانون يردعها ولا أخوة ولا انتماء ولادين، نقص الانتماء والأخوة تحت سماء وطن واحد يعاني عقوق أبنائه.

(جمال عاشته فزان، ورقصت على إيقاعه حبات رمالها تسبح في فضائها، حضارة التاريخ الأولى كانت، واحتار في تفسيرها العلماء... فهل يعقل فزان الدهشة، فزان الحضارات، أن ترسم صورة الخراب والدمار، صورة القبح، لو كان سالم يعلم لقبّل جبين رحيل، ولو علموا ما رموا مريم مصحة الجنون)[25].

هذا المقطع يعد متمما للمقطع السابق، حيث يشير إلى المفارقة بين فزان الأمس واليوم، بين التشظي الآني والرقي القديم، وهل يمكن للحضارات أن تقوم لولا الارتقاء بالعقل والفكر إلى أرفع وأنبل مستوياته؟! فأين هو الآن من سلالة تلك الحضارات؟ أم أن أزمة العقل حلت محل الرقي والقيم، فبات رحيل عدوا لسالم (الأخوة)، وباتت مريم /فزان، الفقد والجنون.

(... مختلفة مشاعرهم بعضهم يتسامر وأغلبهم سرحى، لا أظنهم يفكرون في الإبل الآن، فرحلتهم غامضة، وحياتهم مرهونة بحركة زناد أو ميلان قارب)، (لا أظنني أهذي إني أراهم في هذه الطرق، أجدادي مقيدي الأرجل والأيدي والأعناق بسلاسل غليظة، يجرون

24- عائشة الأصفر، النص الناقص، ص111.

25- المصدر نفسه، ص117-118.

منها كالقطيع، يقتادون حفاة عراة، ينتزعون من رحم صحرائهم، يتكدسون على أسطح السفن نحو أمريكا وأوروبا... المسير المسير، لا شيء في بلادهم إلا المسير)[26].

جاء هذا المقطع السردي على لسان إبراهيم في رحلة العبور إلى الحياة/الموت، تلك الرحلة المحفوفة بكل الألم والشقاء، والمثقلة بذاكرة ملؤها العبودية والرق منذ التاريخ، حيث لا انتهاء ولا اكتفاء من ذل النقص الذي يلاحق ذوي البشرة السمراء، تلك التعويذة الملونة باللون الأبيض، تتلبسهم حتى آخر قطرة عَرَق أسود.

تلك النصوص الناقصة وغيرها من النصوص التي تملؤ الرواية، في مجملها تحمل دلالة نقص العقل/الفكر، وأزمة الذات البشرية مع نفسها. ذاك العقل الناقص من أنتج الكثير من النصوص المشوهة، وما ينتجه فكر ناقص لن يكون إلا ناقصاً بالطبع.

في مشهد استفتاحي لشيخ عجوز وهو يخيط ذراع إبراهيم بعد أن حشاها بالأعشاب السحرية، حتى تقيه الخطر والشر، لكن ذلك لم يمنع الأذى عن إبراهيم، فلم يوقف العبور المقدر لتلك السلالة السوداء، ولم يمنح إبراهيم الحياة، أو أن يتفادى جسده الهزيل رصاصة القتل.

وفي مشهد مماثل لمريم وهي تتجرع الألم تحت تأثير الكي والأعشاب، لعلها تشفى من العقم والجنون، إلى أن رقدت في مهجعها الأخير في مصحة عقلية، وهي توصي عامر بأن يكمل عنها بحثها (ظاهرة النص الناقص).

ومشهد آخر لا يبعد في مضمونه عن مريم وإبراهيم، حيث الموروثات والمعتقدات الشعبية التي تغلغلت في العقل حتى باتت معتقداً مخَلِّصاً وآمناً من الآخر، كالتصفيح مثلاً. ص157-158.

ذاك التوتر والارتباك العقلي في تقدير المفاهيم والرؤى، حيث يصبح السحر ملاذاً وأمناً، بينما المشروع البحثي جنون ونقص.

26- المصدر نفسه، ص142، 143، 165.

الخاتمة:

بنيت الرواية على ثيمة أساسية شكلت النص منذ العتبة الأولى له (العنوان)، حيث التجلي الواضح حيناً، والخفاء حيناً آخر يشي بمدلول العنوان، ويلقي بظلاله على النص، فالعنوان لم يكن ببعيد عن النص، ولا النص بعيد عن العنوان، بل شكل كلاهما علاقة الجزء بالكل وعلاقة الكل بالجزء، في صورة تكاملية واضحة، (الاكتمال/النقص).

كان العنوان في بعده التركيبي يتوسل بالاسمية في معنى الثبات والتقرير، إلى جانب صفة الحذف والإفراد والتعريف، تستند بلاغة العنوان إلى المفارقة في معناه المعجمي، كما توسم بالشعرية والجناس في التشكيل الصوتي والإيقاعي له.

أما في بعده الدلالي فثمت الكثير من الحمولات الدلالات التي تحيل بدورها إلى مضمون النص، حيث يشير العنوان إلى: مشروع (مريم) الذي لم يكتمل، الحضارات التي لم يحافظ أبناؤها على نشوة انتصاراتها وقيامها، الوطن الذي لازال بنصف قلب ونصف دقة نبض، الفرحة المسلوبة والهناء الذي لم يحظ به (عامر)، كل الأحلام التي لم تتحقق، والوطن الذي لازال ناقصاً بنقص فيتامين الوطنية لدى أبنائه، مشروع الهجرة لأجل لقمة العيش، والعودة منه على قارب الموت بخيبات الأمل، فـ((أوروبا لا تستحق كل تلك المعاناة)).. العبودية المشدودة بخيط رفيع من الحرية حد الانقطاع. وكل ذلك تجسد من خلال ما ضمنته شخصيات الرواية ومقاطعها السردية من دلالات وإحالات تومئ إلى نصية العنوان.

المصـــادر والمراجـع

أولاً: المصادر.

1- عائشة الأصفر، النص الناقص، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس – ليبيا، ط1، 2017م.

ثانياً: المراجع.

1- ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 2003م، ج7.
2- جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، (حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)، ط1، 2015م.
3- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤوون العتبة النصية)، دار التكوين، دمشق، د. ط، 2007م.
4- رشيد يحياوي، الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1998م.
5- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 2، 2001م.
6- شعيب حليفي، النص الموازي للرواية: استراتيجية العنوان، مجلة الكرمل، قبرص، ع46، 1992م.
7- عبد الحق بلعابد، عتبات (ج.جنيت من النص إلى المناص)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008م.
8- محمد فكري الجزار، العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، 1998م.
9- محمد عويس، العنوان في الادب العربي: النشأة والتطور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1988م.
10- محمد مسعد، سحر شعرية النص ومناهج قراءته، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2019م.
11- محمد مفتاح، دينامية النص: تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، ط2، 1990م.